جامعة ابن طفيل
Université Ibn Tofail
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
القنيطرة

مجلة الآداب والعلوم الإنسانية

محاور العدد

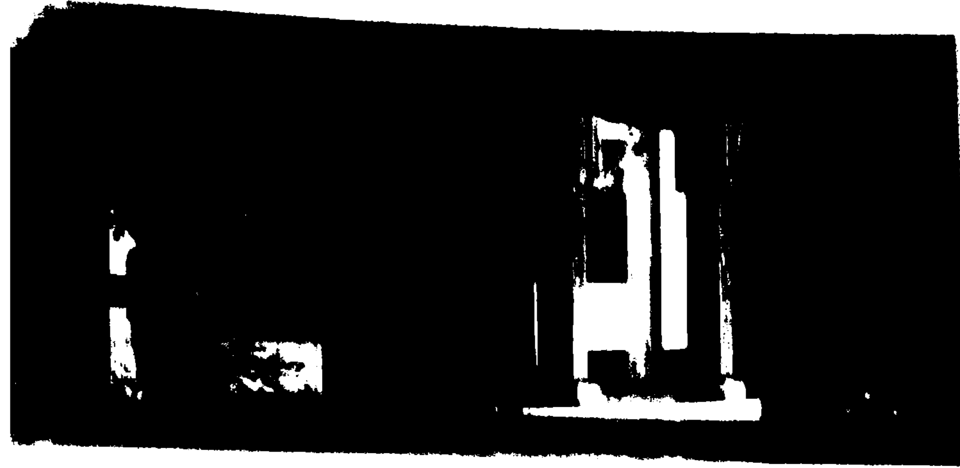
- السرد
- النقد
- اللغة
- التاريخ
- الجغرافيا البشرية
- السوسيولوجيا

العدد 9 - 2009

Ibn Tofail ابن طفيل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
القنيطرة

جامعة ابن طفيل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مجلة الآداب والعلوم الإنسانية



محاور العدد

- السرد
- النقد
- اللغة
- التاريخ
- الجغرافيا البشرية
- السوسيولوجيا

العدد 9 2009



مجلة
الآداب
و
العلوم
الإنسانية

العدد 9 - 2009

الطبعة الأولى
2009

رقم الإيداع القانوني
1997 / 191

مطبعة Rabat Net Maroc

شارع الحسن الثاني حي المنار رقم 6/3
ديور الجامع - الرباط
الهاتف : 05.37.20.46.32
البريد الإلكتوني
imprimerierabatnet@gmail.com

الفهرس

القبائـل الصحراويـة بمنطقة الغرب
دراسة سوسيو - تاريخية

الأستاذ: محمد دحمان
كلية الآداب / القنيطرة

يعتبر المغرب من البلدان التي عرفت حركة سكانية – مجالية على امتداد تاريخه الطويل، وخاصة التنقلات الجماعية للقبائل والعشائر التي كانت ورائها عوامل طبيعية (جفاف، مسغبة، أوبئة...) أوسياسية واجتماعية (حركة المخزن، النزاعات القبلية حول نقاط الماء والمراعي والسلطة). وهكذا لا تشذ القبائل الصحراوية عن هذه القاعدة، حيث ظلت الصحراء تمد الشمال بالمجموعات البشرية وكذا بالعصبيات الزاحفة سواء بحثا عن المراعي أو عن السلطة (معظم الدول التي حكمت المغرب جاءت من الجنوب)، وكانت هذه الدينامية الاجتماعية - السياسية وراء تعمير العديد من المناطق المغربية، كما كانت لها أدوار طلائعية في العلاقات المغربية الإفريقية، وأيضا في الدفاع عن حمى الوطن (حالة الجهاد). لهذا سنقوم في هذه الورقة بتسليط الضوء على نماذج من القبائل الصحراوية التي استوطنت منطقة الغرب (جهة الغرب - الشراردة بني احسن) بشمال غرب المغرب وذلك قصد استجلاء بعض ملامح دينامية قبائل المغرب الرعوية في علاقتها بالمجال الزراعي.

I/ القبائل الصحراوية

نقصد بالقبائل الصحراوية تلك المجموعات التي تترحل في صحراء المغرب انطلاقا من واد نون إلى حدود وادي الذهب جنوبا، والممتدة من المحيط الأطلسي غربا إلى تخوم حمادة تندوف ومنطقة كلتة زمور شرقا وهي عبارة عن مجموعة عشائر تتميز بطول النجعة وبانقسامها إلى قبائل محاربة (tribus guerrieres) وقبائل زاوية (tribus maraboutiques)[1] وأخرى تابعة (tribus tributaires)، وهذا نوع

[1] محمد دحمان: الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، مطبعة كوثر، الرباط 2006.

من تقسيم العمل، حيث أن المجموعة الأولى تمتهن حمل السلاح والزعامة العسكرية والسياسية. أما الثانية فتمتهن التعلم والتعليم وتضطلع بأدوار روحية واقتصادية كالتجارة وحفر الآبار وحماية الموروث الثقافي؛ أما القبائل التابعة فتمتهن الرعي والزراعة فهي بمثابة قوة الإنتاج داخل المجتمع الرعوي الصحراوي، وتدخل في هذا الإطار مجموعات الحراطين (Les affranchies) والحرفيين (لمعلمين) والصيادين (pêcheurs) : الرقيق. كما تتميز هذه القبائل باهتمامها بالأنساب الدموية، فالكثير منها ينتسب لجد جامع مثل: الركيبات، وأولاد أبي السباع والعروسيين واولاد دليم وغيرهم. يقول الباحث الإسباني بارغادوس بهذا الصدد : "القبيلة الصحراوية تتميز بأنها مجموعة ذات خط نسب واحد ذي طابع أبوي، بمعنى أنها مجموعة من الأفراد الذين تربطهم علاقة قرابة بدرجات مختلفة، لكن عبر خط نسب ذكوري ولهم تصرفات ذات طابع تعاوني تجاه ظروف معينة كاتخاذ قرارات ذات طابع عام تهم الأنشطة الرعوية أو في حالة النزاعات التي تحصل ما بين المجموعات وكذا في حالة مواجهة أوضاع خطيرة، خدمة لمصلحة المجموعة..."[1]. هكذا فنحن أمام مجموعات مترحلة يقوم نمط عيشها على حياة الظعن والتجارة العابرة للصحراء، الشيء الذي سهل عليها الدخول في علاقات مع المجموعات الاجتماعية في المناطق الزراعية داخل المغرب بكل من سوس والحوز ومنطقة الغرب.

2/ الغرب : المجال والإنسان

يظهر من خلال المصادر التاريخية المتوفرة أن منطقة الغرب كانت تعني مجالا جغرافيا واسعا يشمل المناطق الممتدة من طنجة شمالا إلى حدود ثغر سلا جنوبا، ومن المحيط الأطلسي إلى حدود مدينة فاس شرقا، غير أن المتتبع لمسار تطور كلمة "الغرب" وكذا كلمة "أزغار"، يلاحظ أنها أصبحت تعني مجالا يتقلص شيئا فشيئا مع توالي العصور والدول بالمغرب من جهة، ومن جهة أخرى أصبح اصطلاح الغرب لا يفيد فقط المجال الترابي، بل المجتمع والمجموعات البشرية التي أصبحت تستقر فوق ذلك المجال انطلاقا من القبائل الهلالية فالمعقلية فالقبائل الصحراوية النازحة أو المنقولة من حوز مراكش، وهذا ما ذهب إليه الباحث المصطفى البوعناني عند معالجته لإشكالية تسمية الأزغار والغرب[2].

(1) انظر : Alberto lopez Bargados. Arenas coloniales los Awlad Dalim ante la colonizacion fran-co-espanola del sahara, edicions bellaterra, Barcelona, Espana, 2003, pp. 48-49

(2) المصطفى البوعناني "أزغار والغرب" : إشكالية التسمية وتحديد المجال" مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 4، كلية الآداب بالقنيطرة، 2004 (ص : 9- 33).

من تقسيم العمل، حيث أن المجموعة الأولى تمتهن حمل السلاح والزعامة العسكرية والسياسية. أما الثانية فتمتهن التعلم والتعليم وتضطلع بأدوار روحية واقتصادية كالتجارة وحفر الآبار وحماية الموروث الثقافي؛ أما القبائل التابعة فتمتهن الرعي والزراعة فهي بمثابة قوة الإنتاج داخل المجتمع الرعوي الصحراوي، وتدخل في هذا الإطار مجموعات : الحراطين (Les affranchies) والحرفيين (لمعلمين) والصيادين (pêcheurs) الرقيق. كما تتميز هذه القبائل باهتمامها بالأنساب الدموية، فالكثير منها ينتسب لجد جامع مثل: الركيبات، وأولاد أبي السباع والعروسيين واولاد دليم وغيرهم. يقول الباحث الإسباني بارغادوس بهذا الصدد : "القبيلة الصحراوية تتميز بأنها مجموعة ذات خط نسب واحد ذي طابع أبوي، بمعنى أنها مجموعة من الأفراد الذين تربطهم علاقة قرابة بدرجات مختلفة، لكن عبر خط نسب ذكوري ولهم تصرفات ذات طابع تعاوني تجاه ظروف معينة كاتخاذ قرارات ذات طابع عام تهم الأنشطة الرعوية أو في حالة النزاعات التي تحصل ما بين المجموعات وكذا في حالة مواجهة أوضاع خطيرة، خدمة لمصلحة المجموعة..."[1]. هكذا فنحن أمام مجموعات مترحلة يقوم نمط عيشها على حياة الظعن والتجارة العابرة للصحراء، الشيء الذي سهل عليها الدخول في علاقات مع المجموعات الاجتماعية في المناطق الزراعية داخل المغرب بكل من سوس والحوز ومنطقة الغرب.

2/ الغرب : المجال والإنسان

يظهر من خلال المصادر التاريخية المتوفرة أن منطقة الغرب كانت تعني مجالا جغرافيا واسعا يشمل المناطق الممتدة من طنجة شمالا إلى حدود ثغر سلا جنوبا، ومن المحيط الأطلسي إلى حدود مدينة فاس شرقا، غير أن المتتبع لمسار تطور كلمة "الغرب" وكذا كلمة "أزغار"، يلاحظ أنها أصبحت تعني مجالا يتقلص شيئا فشيئا مع توالي العصور والدول بالمغرب من جهة، ومن جهة أخرى أصبح اصطلاح الغرب لا يفيد فقط المجال الترابي، بل المجتمع والمجموعات البشرية التي أصبحت تستقر فوق ذلك المجال انطلاقا من القبائل الهلالية فالمعقلية فالقبائل الصحراوية النازحة أو المنقولة من حوز مراكش، وهذا ما ذهب إليه الباحث المصطفى البوعناني عند معالجته لإشكالية تسمية الأزغار والغرب[2].

(1) انظر : Alberto lopez Bargados. Arenas coloniales los Awlad Dalim ante la colonizacion franco-espanola del sahara, edicions bellaterra, Barcelona, Espana, 2003, pp.48-49

(2) المصطفى البوعناني "أزغار والغرب" : إشكالية التسمية وتحديد المجال" مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 4، كلية الآداب بالقنيطرة، 2004 (ص : 9- 33).

المدلول السوسيو مجالي هو ما نقصده في هذه الدراسة المتعلقة بحضور القبائل الصحراوية بالمنطقة، فما هي هذه المجموعات التي وفدت على الغرب؟ وما هي الآثار الاجتماعية لتلك الهجرة على نمط عيشها الرعوي الأصلي؟

3/ القبائل الصحراوية بمنطقة الغرب

منذ ما يناهز القرنين من الزمن ظهرت مجموعة قبائل صحراوية بسهل الغرب، وكانت وراء تلك الهجرة مجموعة عوامل، أهمها البحث عن الماء والعشب من جهة، والسياسة التأديبية التي كان يقوم بها المخزن تجاه بعض القبائل المتمردة حيث ينقلها أو ينقل بعضها إلى مكان بعيد عن موطنها الأصلي، ومن تلك القبائل كان :

1 - أولاد أبي السباع

مهد هذه القبيلة هو جدها الجامع (père éponyme) أبي السباع المعروف بعامر الهامل المدفون بقبيلة آيت اصواب ببلاد سوس، وهم ينتسبون للشرفاء الأدارسة، بدأ انتشارهم في منطقة سوس وواد نون، ثم جاؤوا مع الحملة السعدية إلى مراكش في بداية دولة السعديين، ليتمركزوا بحوز مراكش، ومنه سينطلقون في توسع نحو الصحراء (الساقية الحمراء، شنقيط) والسهول الأطلسية، تميزت هذه القبيلة بكثرة الزوايا والمدارس العلمية العتيقة إلى جانب حمل السلاح والفروسية وممارسة التجارة العابرة للصحراء إلى جانب التصوف (الجزولية، الناصرية...)[1].

فقد كان منهم قادة الجهاد والمتصوفة مثل عبد الله بن ساسي ومحمد بن عيسى المهدي السباعي دفين مكناس وبوحاجة دفين سلا وسيدي المختار لعبيدي دفين تغسريت بالحوز وسيدي علي أمعاشو جد البحراويين النازلين ببلاد الغرب المعروفين بـ "البحارة" الذين جاؤوا في إطار المد الجزولي بشمال غرب المغرب دفاعا عن الثغور المغربية حيث لا يزال هناك ضريح مولاي الهاشم البحراوي قرب رأس الذروة، وقد حظيت هذه المجموعة السباعية المتمركزة بشمال الغرب وكذا بزمور (حالة سيدي علال البحراوي) بظهائر التوقير والاحترام. يقول صاحب كتاب (تحفة الحواشي) بهذا الخصوص : "وقد تشرفنا بالاطلاع على ظهائر ملوكية كثيرة لهم منها لهذه الدولة الشريفة الحسنية العلوية منبئة ومنادية بجلالتهم وكمال رفعتهم ووصفهم لهم بالعلم والولاية وقفنا على أعيانها ونصوصها...وفي جل تلك الظهائر التصريح بكون جميع زواياهم حرما آمنا وملجأ

---

(1) انظر : Paul Pascon. la Maison d'iligh et l'histoire sociale du Tazerwalt, smer, Rabat, 1984

حصينا لكل من استجاربها"(1).

أما المجموعة الثانية من السباعيين الوافدين على الغرب بصفة إرادية، فهي أولاد أبي السباع المنتسبين لسيدي بلكامل صاحب الضريح الواقع على ضفة نهر سبو قرب سيدي علال التازي، هؤلاء عرفوا بتعاطيهم لحفظ القرآن وممارسة التدريس بمنطقة الغرب منذ القرن 18 ميلادي، كما مارسوا الزراعة وهم يتمركزون حاليا بضاحية مدينة سوق أربعاء الغرب، ويتكونون من الدواوير التالية(2):

- أولاد هاشم

- أولاد بن اسبع الكرادة

- أولاد بن اسبع أولاد جلول

كما توجد منهم فرقة أخرى قرب خميس الرميلة وهم المعروفون بأولاد بونية بالإضافة إلى صلحاء "لمعاشات". ويظهر من خلال الظهائر والمراسلات المخزنية التي في حوزتهم أنهم ينحدرون من بطن أولاد اصغير، وهم "من نسل إبراهيم بن اعمر بن عامر الهامل أبي السباع، عرفوا بين قومهم بالصلاح والولاية..."(3).

وقد تميز أولاد أبي السباع، من بين القبائل الصحراوية بالانفتاح وسرعة الاندماج الاجتماعي والاقتصادي مما أهلهم ليكونوا من أول القبائل التي تعاملت مع الأجنبي تجاريا، واستفادت من أساليب الحياة العصرية حيث اندمجوا في المؤسسات الحديثة بكل من الصحراء وموريتانيا والمغرب وتكيفوا مع الاقتصاد الزراعي ثم الصناعي حاليا.

غير أن هناك فروعا أخرى من هذه القبيلة كان سبب قدومها إلى الغرب هو حركة المخزن حيث أن أولاد أبي السباع الذين كانوا يقيمون بحوز مراكش دخلوا في تمرد على السلطة المركزية، مما دفع السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي في القرن 18م إلى نفي بعضهم نحو الغرب حيث اختلطوا بقبائل الشراردة واولاد دليم وتخلقوا بأخلاقهم(4).

2 - قبائل الشراردة

يذهب صاحب كتاب "الاستقصا" إلى أن الشراردة ينتسبون لقبائل معقل

(1) سعيدبن عمرلمعاشي. تحفة الحواشي في مناقب سيدي علي المعاشي، المطبعة الوطنية لصاحبها عباس التناني، الرباط ب–ت (ص18).

(2) أنظر: - Répertoire alphabétique des confédération et des tribus du Maroc – territoire de port Lyautey, Rabat 1936, p.552

(3) صالح بن بكار، الأنس والإمتاع في أعلام الأشراف أولاد أبي السباع، دار وليلي للطباعة والنشر، مراكش، 2000 (ص، 87).

(4) احمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا، الجزء الثامن، دار الكتاب، البيضاء 1957 (ص: 160)

صحراوية؛ لكن الملاحظ أن هذه المجموعات لما حلت بحوز مراكش إبان قيام دولة السعديين التحقت بها مجموعات اجتماعية أخرى بفعل التحالفات الزواجية وضرورة ضمان المراعي والحقول الزراعية، هذا ناهيك عن "حركة المخزن" التي كثيرا ما تتدخل في القبائل تثبيتا لها على المجال او نقلها إلى مجالات أخرى، وخاصة ما وقع للشراردة بعد قضاء المخزن على زاوية الشرادي في حوز مراكش سنة 1244هـ. وهكذا اجتمعت فوق سهل الغرب مجموعة قبائل صحراوية تنتمي إلى القبائل المحاربة تحت اسم الشراردة رغم أنها مكونة من تكنة وأولاد دليم.

قبيلة **أولاد دليم**: تنتسب هذه المجموعة إلى بني حسان من قبائل المعقل التي كانت في بدايتها بالمغرب الشرقي (النجود العليا)، ثم نزحت عبر درعة إلى الساقية الحمراء خلال القرن 7هـ/13م[1]، ثم عاد بعضها مع الحملة السعدية إلى حوز مراكش لتختلط بالشراردة وتصحبهم في سيرهم إلى الغرب. ويوجد منهم بناحية سيدي قاسم البطون والأعراش التالية التي تحولت إلى دواوير ومداشر مرتبطة بالعمل الفلاحي[2].

1ـ أولاد سنان ← أولاد شاكر
- احمادنة
- المؤدنين
- رحالة
- اولاد مالك

2ـ أولاد افضيلة
- أشوارب
- أولاد اشويخ
- لمتارفة
- اجليفات

3 ـ العاطفة
- أولاد أبيه
- لحويضات
- أولاد المولات
- لحبابشة
- اولاد أرميثية
- اتحيحات
- ارمامنة

(1) انظر حول بني حسان بالصحراء :

Abdel Wedoud ould Cheikh. Eléments d'histoire de Mauritanie ; Institut Mauritanien de recherche scientifique, Nouakchott 1988.

- كذلك حول أولاد دليم : محمد دحمان . المجاهد إبراهيم السالم ولد ميشان، مطبعة المعارف الجديدة، منشورات مؤسسة مربيه ربه، الرباط 2007

(2) عدنا في هذه المشجرات إلى التحري الميداني بمنطقة الشراردة بإقليم سيدي قاسم، وكذلك إلى ما سجله مشوبلير في كتاب : مدن وقبائل المغرب :

- Villes et tribus du Maroc, volume 5: Rabat et sa Région, tome III, les tribus, Editions Ernest Leroux, 1920 (pp, 340-345).

4 ـ الشناكلة
- أولاد للي
- لبراقيق

5 ـ أولاد زهرة
- اسلافتة
- لعضالي
- لخفاونة
- اشمامنة
- أولاد عمار
- لعياطنة ومشظوف

6 ـ العزابة (وهم خليط)
- عزيب المقري الريفي
- اعزيب امحمد التازي
- اعزيب عبد المالك التازي

7 ـ أولاد ادراع وأولاد امبارك
- أولاد اذراع
- أولاد امبارك

8 ـ أولاد امعرف
- اصكارنة
  - أولاد امحمد
  - أولاد سليمان
  - أولاد المومنة
  - أولاد مسعود
- أولاد مريم
  - اطليحات ← اولاد أرميثية
  - أوماجك
  - ارمامنة
  - لخنيفرات
  - لعياسنة
  - ادخينة

9. ادخيلت امعرف: - أولاد محمود - أولاد الطنجي

10 - أولاد عامر: - أولاد بن بكار - اعزيب شرفاء وزان

11. أولاد جبارة:
- الغربان
- أولاد بن علي
- أولاد جبارة
- أولاد حمان

12. أولاد زيان:
- أولاد يخلف
- أولاد بن بوط
- أولاد زيان
- أولاد احمامة

13. لعناترة:
- أولاد بن زيد
- أولاد خليفة

ب - قبائل تكنة[1]: تعتبر تكنة اتحادية قبلية ظهرت منذ القرن السادس عشر بمنطقة واد نون ودرعة السفلى مكونة من لفين كبيرين وهما: أيت بلة وأيت أجمل، وتضم مجموعات مترحلة عبر درعة والساقية الحمراء، ومجموعات شبه مستقرة في قصور وواحات واد نون مثل أسرير وكلميم ولقصابي وآسا وغيرها.

وكانت هذه القبائل من جملة مجموعة الشراردة التي تم نقلها إلى منطقة الغرب على عهد السلطان مولاي عبد الرحمن العلوي، والبطون والأعراش التالية هي الموجودة بسهل الغرب:

---

(1) حول كنفدرالية تكنة يمكن مراجعة:
- مصطفى ناعيمي: الصحراء من خلال بلاد تكنة، مطبعة عكاظ، الرباط 1988.

1 ـ أيت بلـــة

- أولاد داوود
  - ازوافيط
  - دوار بن بكار
  - اعزيب بن سودة
  - أولاد داود سبو
- آيت مسعود
  - دوار أولاد المجاطية
  - دوار بلقصير
- آيت ابراهيم
- ايت باها
- أيت حمو
- أيت بورك سبو
- أيت بورك سلفات

2 ـ آيت أجمل

- أيت أورحمة
- أيت داوود
- أيت سلطانة
- أيت أوزار
- أيت عبد الله
- آيت لعكيد
- آيت امبارك
  - ادريبيلة
  - اجريوات
- أولاد بنعمارة
- آعريبات
- أيت ساعد
- آيت لحسن[1]
- أيت الحسين
- أزنكاط

(1) انظر عمر ناحيه : البنيات الاجتماعية والاقتصادية لقبائل وادي نون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر : قبيلة آيت لحسن نموذجا، رسالة د.د.ع في التاريخ، كلية الآداب بالرباط، 2000، ص.480.

وهي فروع قبائل تكنة الصحراوية التي نقلت إلى منطقة الغرب، والملاحظ هنا اللفين غير ممثلة كاملة بالغرب، نظرا إلى طبيعة نزوحها إلى هناك، غير (آيت بلة) وتكنة الغرب (آيت أجمل) ممثلة ببلاد الغرب.

كما نسجل أن هذه البطون والأعراش لما استقرت بالغرب سرعان ما تحولت إلى انضمت إليها مجموعات مختلفة من عائلات وأشخاص في شكل فلاحين "اعزيب" الشيء الذي لم تعد فيه مجموعة تكنة محافظة على الأنساب خاصة أن هذه القبائل سبق لها أن أقامت بحوز مراكش واختلطت بمجموعات (دليم، زيرارة، مجاط، شناكلة) وامازيغية (رجراجة، متوكة، مزوضة..) وهكذا الانتساب إلى المكان بدل الانتساب إلى الجد الجامع، مثال: أيت بورك سبو، بورك سلفات، أولاد داوود سبو، كما تحولت بطون كبيرة إلى مجرد دوار مثل: شناكلة التي كانت قبيلة مستقلة في الصحراء فتحولت إلى مجرد دوار من دواوير قبيلة أولاد دليم بالغرب، ونفس الشيء بالنسبة لأولاد المولات الذين أصبحوا عبارة عن دوار من بطن العاطفة. هكذا يؤدي توطين القبائل الرحل إلى انشطار هذه الأخيرة وبالتالي بينما ترسخ هوية جديدة أساسها التعاطي للفلاحة والارتباط بالأرض، خاصة أن هذه القبائل (أولاد دليم وتكنة) كانت تعد قبائل كيش تقوم بخدمة المخزن مقابل استغلال الأراضي الزراعية، هذا ناهيك عن أقدمية توطن هذه المجموعات بسهل الغرب. وهذا ما أحدث علاقات اجتماعية جديدة وتمثلات للأرض والمجال والزمان وحول الآخر، كما برزت قوى اجتماعية جديدة تتخللها نزاعات حول المصالح وتبعا لاستراتيجيات دينامية[1]، ولعل ذلك يزداد حاليا مع هيمنة المدن وتطور العلاقة مع الدولة وما بين المجموعات والأفراد حيث عرفت بادية الغرب انقلابات اجتماعية واقتصادية خاصة منذ التدخل الاستعماري وتغلغل المعمرين إلى منطقة الشراردة اولاد دليم تكنة.

إن توطين قبائل البدو الرحل، يبين أن مؤسسة القبيلة ليست بنية جامدة، بل يمكن اعتبارها استراتيجية لها طابع دينامي يمكنها من التكيف مع الأوضاع المستجدة وفي ذلك اختلاف ما بين المجموعات القبلية النازحة إلى الغرب، فأولاد أبي السباع استطاعوا الحفاظ على اللحمة القبلية رغم تحول نمط عيشهم من الترحل إلى الإقامة، أما أولاد دليم وتكنة الشراردة فقد تفككت العصبية لديهم نظرا للخدمة العسكرية وطبيعة حيازة الأرض وضعف تأثير العامل الديني وتقلص دور الصلحاء، بينما السباعيون

(1) انظر: Mouldi lahmar. Du Mouton à l'olivier : essai sur les mutations de la vie rurales maghrébine, ceres éditions, Tunis, 1994 – p. 33

تملكوا الأرض وحاولوا الحفاظ على الزواج الداخلي وارتبطوا بالعلوم التقليدية والتصو
الشيء الذي ساعد على التلاحم النسبي فيما بينهم.

إن ما سجلناه سابقا يؤكد مرة أخرى ما ذهب إليه جاك بيرك منذ صدور مقالته الشهيرة "حول مدلول القبيلة بشمال إفريقيا"، التي تتميز بكونها تسمية أكثر منها بنية جامدة.

فقد عرف جاك بيرك القبيلة بالاسم وبالاسم وحده، والقول إن البداوة هي اسم ولا شيء سواه يعني، أول ما يعنيه، أن كل التعريفات والتصنيفات التي نظرت إلى القبيلة وكأنها كيان مستقل بذاته تعتبر من الوصف العفوي الذي لا طائل من ورائه، فلا يمكن من هذا المنطلق تعريف القبيلة، في الأساس وبدرجة حاسمة، بإرجاعها إلى فروعها وبطونها وأفخاذها، كما تدعي ذلك السير ومدونات الأدب الشعبي، ولا يكفي إرجاعها إلى العصبية، كما يزعم ابن خلدون، ولا يمكن لنا ردها إلى نمط عيشها المتمثل في الحل والترحال، كما يتراءى لبعض الأنثروبولوجيين، ولا بربطها فقط بالتاريخ والأرض، كما يبدو لبعض من المؤرخين وعلماء الاجتماع، فالقول إن القبيلة في الأساس اسم ولا شيء سواه، يعني أن القبيلة ليست سوى أسماء وتصنيفات أو قل هويات تنحت وتكتشف وتصنع لرفع أذى ورد هيمنة ومواجهة خطر خارجي[1]، وهذا ينطبق إلى درجة كبيرة على قبائل الصحراء التي تحولت إلى جماعات مزارعة بسهل الغرب واندمجت في مختلف جوانب الحياة بالمنطقة.

إن هذه الورقة لا تعدو أن تكون لفت انتباه إلى أهمية الدراسة السوسيو-تاريخية لطبيعة العلاقة ما بين المجموعات الاجتماعية في جنوب المغرب وشماله، ولذلك قيمة علمية أكاديمية تتمثل في المساهمة في فهم آليات المجتمع المغربي وطبيعة ديناميته الاجتماعية التي تمر بها القبائل والجماعات في علاقة بالدولة والمدينة والموروث الثقافي. هذا الأخير الذي يتمثل هنا في الثقافة الحسانية وتقاليد قبائل الرحل التي لا تزال حاضرة اليوم بمنطقة الغرب في الفنون وأسماء الأماكن والعادات والتقاليد وفي اللسان الدارج، وهو ما يحتاج المزيد من التحقيق العلمي الرصين الذي ينأى بأصحابه عن شطط التأويلات السريعة والمغرضة.

---

(1) البشير التليلي "البداوة المطاردة" : ملاحظات أولية للبحث في أثر فعل الحداثة في البداوة" مجلة إضافات، العدد الثاني، بيروت، 2008 (ص : 214).